سير الزمان

مشكلة البحر المتوسط

ملخص مقال

لوليم لانجر

استاذ التاريخ الحديث بجامعة هارفرد الاميركية

الحرية المختنقة

استاذ تاريخ في اميركا يصف اعتناقه الشيوعية

ثم التحابه منها

للاستاذ ستيرلنغ بروده

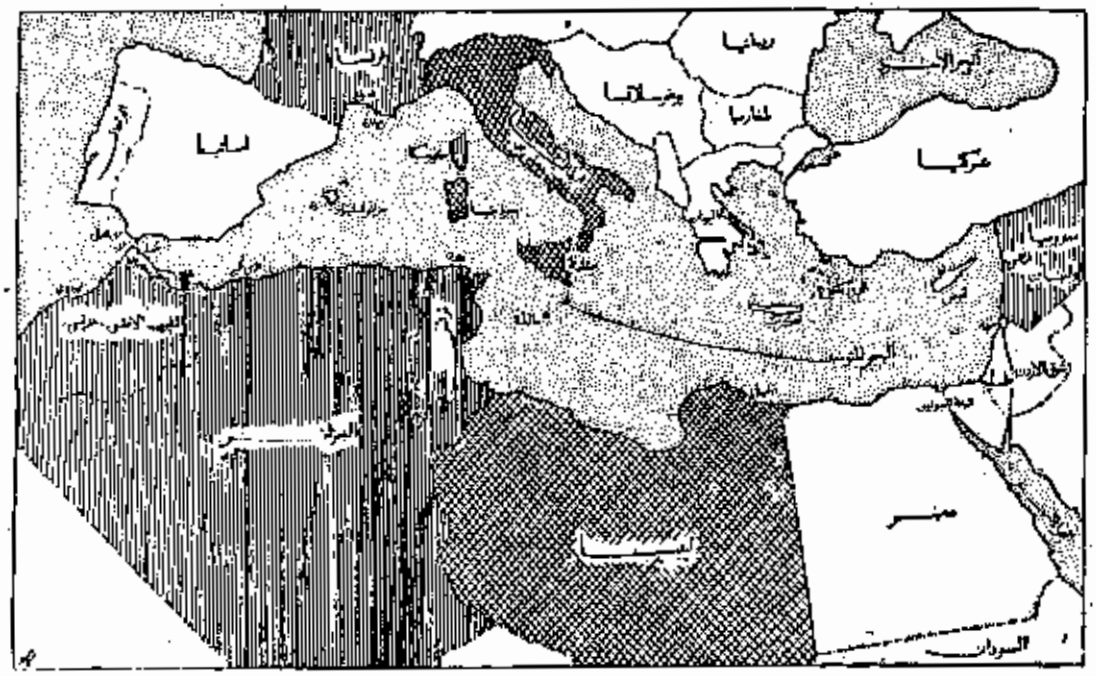

خريطة البحر المتوسط وسواحله وقد بينت فيها المواقع الواردة في المقالة

أوشكت بريطانيا وإيطاليا من سنتين ان تخوضا غمار حرب في البحر المتوسط ، ومنذ نشبت الحرب الاهلية الاسبانية زادت المشكلات التي تتصل بهذا البحر تعقداً وغموضاً . ومع انهُ من الحق محاولة التنبؤ بما يقع في المستقبل الا أن درس تاريخ المشكلة وتحليل عناصرها الاساسية يلقي ضوءاً على الحالة الحاضرة ويساعد على فهمها

من الحقائق المسلم بها شدة اهتمام انكلترا باقصر طريق بحري الى امبراطوريتها الاسيوية ، منذ فتح ترعة السويس واحتلال انكلترا لمصر فلا حاجة بنا الى التوسع في هذه الناحية من الموضوع الآن . ولكن لا بدّ من كلمة في الاعتبارات التي أملت على الحكومة البريطانية خطتها في حماية هذه الطريق . فقد كانت انكلترا تخشى روسيا اكثر من خشيتها اية دولة اوربية أخرى في بضع السنوات التي تلت شقّ الترعة . وكان همّ دزرائيلي متجهاً إلى صدّ روسيا عن التقدم في البلقان والقوقاس . فلما انفرجت ازمة سنة ١٨٧٨ كانت انكلترا محتلة قبرص . وكان الظن أن الغرض من هذا الاحتلال استعمال هذه الجزيرة قاعدة يعتمد عليها في مقاومة روسيا اذا حاولت التوسع جنوباً من طريق الاناضول أو عن طريق البحر . ثم أطلق لورد سليسبوري يد فرنسا في تونس وهذا يدلُّ على ان انكلترا لم يخطر لها قيام عداء انكليزي فرنسي . فلما احتلت فرنسا تونس سنة ١٨٨١ وشرعت تناوىء بريطانيا كان الباعث على مناوئتها الظهور بمظهر الدولة القوية المهيبة ، ولم يدر حينئذٍ في بال الفرنسيين أن لتونس مكانة عسكرية تذكر

ولم ينشأ التنافس بين انكلترا وفرنسا في البحر المتوسط الا بعد ما احتلّت انكلترا مصر . ومع ذلك ظلّ الانكليز ينظرون في العقد التاسع من القرن الماضي الى مناوأة الفرنسيين لهم مستخفين بها . ففي ذلك العهد كان الايطاليون يخشون فرنسا فتعلقوا بأذيال انكلترا وعلى ذلك عقدت المواثيق الخاصة بالبحر المتوسط في سنة ١٨٨٧ بين انكلترا وايطاليا ثم انضمت

(*) مجلة الشؤون الخارجية عدد يوليو سنة ١٩٣٧

اليها النمسا والمجر وكان ذلك بمساعدة بسمارك وتشجيعه . واهم ما في هذه المواثيق ما يخص البحر المتوسط الاتفاق على الاحتفاظ بالحالة الراهنة في ذلك البحر والحيلولة دون اتساع سلطة فرنسا في شمال افريقية. ومن المؤكد انهُ لو حاولت فرنسا حينئذٍ ان تتجاهل مغزى هذا الاتفاق لواجهت قوات ايطاليا وانكلترا مجتمعةً

فلما عقدت الحالفة الفرنسية الروسية (١٨٩١—١٨٩٣) كان عقدها على الغالب ردًّا على اتفاقات البحر المتوسط التي اشتركت فيها بريطانيا وايطاليا وامبراطورية النمسا والمجر . ولما زار اسطول روسي ثغر طولون في شهر أكتوبر من سنة ١٨٩٣ أدرك الانكليز مغزى الزيارة . وكان لهم في البحر المتوسط أسطول قوي مرتكزاً على مالطة . ولكن الاسطول الفرنسي في طولون لم يكن دونهُ عدداً والراجح انهُ كان يفوقهُ قوةً . وكانت فرنسا حينئذٍ على وشك انجاز التحصينات القوية في بيزرته . وباستناد قواتها الى بيزرته وطولون أصبح غرب البحر المتوسط في قبضتها تقريباً . وعلاوة على ذلك كان لروسيا أسطول لا بأس بهِ في البحر الاسود وكان في استطاعتهِ ان يصل الى شرق البحر المتوسط من دون ان يخشى الاتراك . ففي حالة نشوب حرب ، كان يخشى على الاسطول البريطاني ان يقع بين حجري الرحى في الوسط وليس لهُ دون الا أسطول ايطاليا . فسرى الذعر في نفوس البريطانيين في سنة ١٨٩٣ — ١٨٩٤ وعني خيراؤهم بدراسة المشكلة من جميع وجوهها . حتى أن جوزف تشمبرلين والدوتيس الوزارة البريطانية الحالية صرح في مجلس النواب انهُ في حالة نشوب حرب لا يبقى أمام الاسطول البريطاني الا الفرار اذا كان يستطيع الفرار . وكان من رأي سياسيين آخرين مثل ذلك Dilke وبراسي Brassy بعد ان رأيا عجز الاسطول البريطاني عن حماية السفن البريطانية ان تسجل السفن البريطانية في سجلات دول أخرى وترفع علماً غير بريطاني وكان جل أملهما معقوداً على ان لا تحسب المواد الغذائية من المواد الممنوعة في الحرب Contraband

وكانت النتيجة أن أقبلت انكلترا على تعزيز أسطولها ببناء سفن حربية جديدة وسعى لورد روزبري الى تعزيز اتفاقات البحر المتوسط المعقودة مع ايطاليا والنمسا والمجر بحمل المانيا على تأييدها . ومن حسن حظ الانكليز ان أنظار الروس اتجهت الى الشرق الاقصى ، فلما اشتد النزاع بين فرنسا وانكلترا على مسألة فاشودة في سنة ١٨٩٨ أحسّت فرنسا ، وقد تخلت عنها صديقتها روسيا وأفضى النزاع الداخلي الدائر حول قضية دريفوس، ان لا قبل لها بمقاومة بريطانيا فمال ديلكاسه الى الاتفاق وكذلك تعززت هيبة بريطانيا البحرية

كان ديلكاسه في تلك الآونة يسعى الى التفاهم مع انكلترا بصرف النظر عن حادثة فاشودة نفسها . وكان أمله ان يعقد اتفاق بين انكلترا وروسيا سياسةً الى اضعاف الحالفة

الثلاثية بين المانيا وايطاليا وامبراطورية النمسا والمجر . فاستهال السفير الفرنسي في روما — كلود باريير — الحكومة الايطالية باطلاق يدها في طرابلس مقابل اطلاق يد فرنسا في مراكش . وكانت الحكومة الاسبانية قد خرجت ضعيفة من الحرب الاسبانية الاميركية ، وكانت تخشى خسارة جزائر كناري او جزائر البليار ، اذ كان الزعيم المانيا تنوي الفوز بها اذا استطاعت . فعرضت باريس على مدريد عقد اتفاق تنال بمقتضاه قسماً من مراكش . ولكن أسبانيا لم تقدم على عقد أي اتفاق من دون موافقة لندن . فوجب على دبلكاسه الاتفاق مع انكلترا فكان ذلك الباعث على عقد الاتفاق المشهور سنة ١٩٠٤ وأساسهُ تخلي فرنسا عن مطالبها في مصر مقابل تخلي انكلترا عن مقاومة السياسة الفرنسية في المغرب الاقصى

وكان من الطبيعي ان تشتمل المفاوضات لعقد هذا الاتفاق على دراسة مشكلة البحر المتوسط بجذافيرها . فالخطة البريطانية في ما يتعلق بالمغرب الاقصى كانت قائمة على ان كل اعتداء على ساحل المغرب الاقصى الذي على البحر المتوسط يجب ان يقاوم بالقوة . وكان دبلكاسه يخشى المانيا ويرغب في الوصول الى الاتفاق المنشود فقطع العهود اللازمة بل تمادى فاقترح اتفاقاً يحبط بمقتضاه على كل مسعى تبذلهُ المانيا للفوز بجزائر البليار ، فلم تقبل انكلترا هذا الاقتراح ، بل انطوى الاتفاق النهائي على الامتناع عن اقامة اي حصون على ساحل المغرب بين مليلة وطنجة وان تجعل طنجة منطقة محايدة . فلما عقدت اسبانيا اتفاقها مع فرنسا على مراكش قبلت العهود التي قطعتها فرنسا لانكلترا في موضوع التحصينات الساحلية . وكانت انكلترا قد اتفقت مع اسبانيا على الامتناع عن تحصين « الجزيرة » Algeciras المتاخمة لجبل طارق على الساحل الاسباني الجنوبي وكذلك فازت انكلترا بكل ما يلزم لضمان حرية مضيق جبل طارق

ولما كانت قوة فرنسا وانكلترا البحرية في البحر المتوسط على جانب عظيم من المنعة والقوة ، اضطرت ايطاليا واسبانيا ان توثق صلاتهما بالاتفاق الودي . كما ان ايطاليا ظلت على صلة بحليفتيها المانيا والنمسا ، ولكن اسبانيا والبرتوغال كانتا من اتباع فرنسا وانكلترا . فلما وقعت ازمة ١٩٠٥ وبدا خطر التوسع الالماني ، اصبحت انكلترا تنزع من كل وزير خارجية برتوغالي وعداً بان لا تمنح البرتوغال لالمانيا مرفأ حربياً او محطة تجارية في جزائر « مدرا » او « الازور » . وفي سنة ١٩٠٧ تبادلت مدريد مع باريس ولندن ما يطمئن تينك الدولتين على الاحتفاظ بجزائر كناري وجزائر البليار لاسبانيا

وقد ظلت الحالة بغير تبديل من تلك السنة الى سنة ١٩١٢ على الرغم من ازمة اغادير . ولكن حرب ايطاليا وتركيا (١٩١١) ادخلت عنصراً اساسياً على مشكلة البحر المتوسط ، ذلك ان احتلال ايطاليا لطرابلس اتاح لايطاليا قاعدة بحرية كبيرة الشأن في طبروق . وكان اهم من

ذلك احتلالها جزائر الدوديكانيز في مايو سنة ١٩١٢ لانه جعلها على مقربة من سواحل الاناضول ومكنها من قاعدة متوسطة بين مالطة والاستانة وترعة السويس . فاحدث هذا الاحتلال موجة من الغضب في باريس ولندن . فالفرنسيون خشوا ان يكون الايطاليون يعدّون عدّتهم لتحدّي مقامهم الاقتصادي والثقافي في الشرق الادنى . والانكليز اقلقتهم الناحية الحربية البحرية من الموضوع . فقد رفعت الاميرالية البريطانية مذكرة في سنة ١٩١٢ قالت فيها ان السلطات البحرية الانكليزية جرت على خطة اساسها ان لا يسمح لدولة ما ان تنشىء قاعدة بحرية تبعد اقل من الف ميل عن مدخل ترعة السويس اي الى الشرق من مالطة

وقد زاد هذه الحالة خطراً في نظر انكلترا وفرنسا طروء عوامل اخرى . فزيادة قوة المانيا البحرية اقتضى من انكلترا ان تسحب من البحر المتوسط معظم اسطولها في سنة ١٩١٢ لتعزيز اسطول البحر الشمالي . حالة ان فرنسا اضطرت ان تبقي معظم اسطولها في مياهها الجنوبية لمواجهة قوات ايطاليا وامبراطورية النمسا والمجر . وقد كانت قوات فرنسا البحرية متفوقة قليلاً على قوات ايطاليا والنمسا مجتمعتين مع ان هذه القوات كانت تحتوي على وحدات أحدث طرازاً وأقوى مدافع من الاسطول الفرنسي . وهذا حدا بدبلكاسه في سنة ١٩١٢ الى وضع برنامج انشاء بحري واسع النطاق ووعدت انكلترا بابقاء اربعة طرادات خفيفة في البحر المتوسط وبأن تبعث بضعة دريدنوطات حالما يتاح لها ذلك . وكان اعظم ما تخشاه لندن وباريس ان يسلم الايطاليون للالمان قاعدة بحرية على ساحل طرابلس او في الدوديكانيز . او ان تمنّي بعض الدول اثر ايطاليا فتتخذ لنفسها قواعد بحرية في شرق البحر . ولذلك قال سفير بريطانيا في مدريد «عندما تملك ايطاليا قاعدة بحرية في شرق البحر المتوسط يصبح الحلف الثلاثي سيد تلك السواحل »

فكيف تواجه هذه الحالة ؟ اقترح بول كامبون سفير فرنسا في لندن اولاً ان يفتح البوسفور والدردنيل للاسطول الروسي في البحر الاسود . فلم يقع هذا الاقتراح موقعاً حسناً عند اولي الامر . ثم شرعت فرنسا وانكلترا تبحثان في امكان عقد اتفاق مع ايطاليا على اساس الاحتفاظ بالحالة الراهنة في البحر المتوسط احتياطاً للمفاجآت ومنعاً لايطاليا من ان تتمادى في الارتماء في احضان المانيا والنمسا . وأيد غراي وزير خارجية انكلترا هذه الخطة . وساعده في ذلك سفيرا فرنسا في لندن وروما . نظما عقد الصلح بين تركيا وايطاليا في اكتوبر سنة ١٩١٢ بدأت المفاوضات ولكنها لم تسفر عن اي اتفاق . لان ايطاليا طلبت ان تستبقي جزيرة او جزيرتين من جزائر الدوديكانيز ، وفرنسا وانكلترا اصرتا على اخلائها جميعاً . وظلت المفاوضات في هذا الموضوع دائرة حتى استهل الحرب الكبرى . ولم كانت ايطاليا قد تعهدت في صلحها مع تركيا بأن تخلي الجزائر متى انتهت تركيا باخلاء طرابلس ولكنها لم تفعل على الرغم من

مساعي لندن وباريس ، حتى اضطر غراي ان يقول للسفير الايطالي « ان ايطاليا اعتدت في السنين الاخيرتين على مصالح بريطانيا اكثر من اية دولتين اوربيتين أخريين »

وكانت نتيجة كل ذلك أن عادت ايطاليا الى حضن صاحبتيها المانيا والنمسا . وفي نوفمبر سنة ١٩١٢ انشأت المانيا لاول مرة في تاريخها البحري اسطولاً صغيراً في البحر المتوسط قوامه طراد القتال «غوبين» وسبعة طرادات صغيرة . فكان ذلك باعثاً على الظن بأن الحلف الثلاثي الذي تجدد في دسمبر سنة ١٩١٢ اخذ يوسع نطاق عمله حتى يشمل شرق البحر المتوسط

فلما رأت دولتا الاتفاق الودّي ان توازن القوى في البحر المتوسط دقيق رجّحتا بمون اسبانيا . وقد دلت الوثائق الفرنسية الرسمية التي نشرت حديثاً على رغبة الملك الفونسو في الانضمام الى الاتفاق الثلاثي فبذل مساعي متواصلة لتحقيق هذا الغرض واكد غير مرّة للفريقين بأنهُ إذا نشبت حرب أوربية فيجب الايساورهم قلق ما من ناحية جبال البرنيه . ثم بيّن للسير بوانكاره بأنهُ اذا كانت أسبانيا متحالفة مع فرنسا فلفرنسا ان تستسهل ثغور اسبانيا في تنبه الجزيرة وفي جزائر البليار بل وسكك الحديد الاسبانية من الجنوب الى الشمال لنقل الجنود . ومع ان بوانكاره لم يتقيد بقيود واسعة النطاق الاّ انهُ استوثق من صداقة اسبانيا ومعاونتها في حالة نشوب حرب

فلما نشبت الحرب الكبرى سنة ١٩١٤ أعلنت اسبانيا وايطاليا حيادهما . وقد احتفظت اسبانيا بحيادها الى آخر الحرب على الرغم من أن الشعور الغالب على الامة كان شعور تأييد «للحلفاء» . أما ايطاليا فان حيادها مهما يكن سببهُ وسواء أكان لكره الايطاليين للنسويين أم لعدم استعدادها للحرب ، كان نعمة على فرنسا وانكلترا ، لانهُ احبط الاتفاق الذي وضعتهُ دول الحلف الثلاثي في نوفمبر سنة ١٩١٣ لمهاجمة سفن النقل الفرنسية السائرة من الجزائر الى جنوب فرنسا . ويكفينا ان نراجع ما احدثتهُ الدراعتان الالمانيتان « غوبين » « وبرسلو » من المتاعب للحلفاء في البحر المتوسط ، في أوائل الحرب ، لكي ندرك مدى تأثير ايطاليا في عرقلة خطوط المواصلات الفرنسية لو أنها انضمت حالاً الى المانيا واستعملت قوتها البحرية في تنفيذ الاتفاق المذكور . إذن لتأخر وصول الجيش الفرنسي التاسع عشر عن الوصول الى اوربا في وقت الحاجة اليه . وقد كانت قوات ايطاليا والنمسا والمانيا البحرية متفوقة قليلاً على قوات فرنسا وانكلترا في بدء الحرب ثم زاد تفوقها قليلاً في مايو ١٩١٥ (اذا صرفنا النظر عن القوات البحرية المحتشدة امام الدردنيل . ومما يدلك على مبلغ رغبة الحلفاء في سنة ١٩١٥ في اتباع ايطاليا بالانضمام اليهم ان جزائر الدوديكانيز منحت لايطاليا في معاهدة لندن السرية مع ان دومرج صرح من شفتي غراي قبيل الحرب قولهُ : « يجب على الايطاليين ان يعيدوا الجزائر يجب الاّ يحتفظوا بها . واننا لن نسلم بذلك » فلما انضمت ايطاليا للحلفاء انتهى الامر ، وعلى الرغم من اعمال النواصات في البحر

المتوسط ، كانت السيادة للحلفاء فيه واستطاعت فرنسا ان تبني مواصلاتها مع شمال افريقية حرّة

وكذلك ظهر من معالجة هذا الموضوع في اثناء الحرب ، انهُ اذا اتفقت انكلترا وفرنسا اغرى اتفاقهما باضمام الدول الاخرى اليهما وان ايطاليا كانت عاملاً حاسماً في الموضوع، ولكن الثمن الذي اقتضتهُ كان باهظاً

في الفترة التي تلت انتهاء الحرب الكبرى مباشرة ، زالت النعما والجزر من حساب الدول البحرية في البحر المتوسط . ولكن ذلك جعل البحر الادرياتيك بحيرة ايطالية تقريباً ، ومكن ايطاليا من ان توجه عنايتها الى البحر المتوسط نفسه. وقد بذلت مساع متعددة بين (١٩١٩— ١٩٢٢) لحمل ايطاليا على التنازل عن جزائر الدوديكانيز فاخفقت فلما عقدت معاهدة لوزان سنة ١٩٢٣ اعترف لايطاليا بسيادتها على تلك الجزائر. وفي خلال ذلك كان موسوليني قد قبض على ازمة الحكم في ايطاليا فاوضح بما لا يدع مجالاً للبس انهُ ينوي ان يسعى الى تحقيق آمال ايطاليا في البحر المتوسط . وكذلك تحوّلت عبارة « ماري نوسترم » اي « بحرنا » من حلم الى خطة وبرنامج

وما لبث موسوليني حتى بدأ يغازل أسبانيا . فالدكتاتور بريمو ده ريفيرا كان يكره ان يكون جبل طارق لدولة أجنبية . فنفرت ايطاليا على هذا الوتر الحساس . وفي سنة ١٩٢٣ زار الملك الفونسو ايطاليا ثم ردّ الملك فكتور عمانوئيل الزيارة في السنة التالية . وعقدت معاهدة صداقة بين الدولتين في أغسطس سنة ١٩٢٦ وشرعتا تسيان معاً لاضعاف مقام فرنسا المتفوق في طنجة. ولا يبعد ان يكون عقد اتفاق سري منحت بهِ ايطاليا حق استعمال جزائر البليار في أثناء حرب، ولكن من الثابت ان القول بنية أسبانيا ان تحفر نفقاً تحت مضيق جبل طارق أحدث هزة في فرنسا ومن المرجح ان سقوط الدكتاتور الاسباني لم يكن باعث أسى وحزن في باريس . ومنذ ذلك الحين عنيت فرنسا بحشد معظم قوتها البحرية في البحر المتوسط، وقد كان موضوع المساواة بينها وبين ايطاليا في القوة البحرية ، من أعقد المشكلات التي قامت بعد نهضة ايطاليا الحديثة

فلما وقعت الازمة الحبشية سنة (١٩٣٥ — ١٩٣٦) ظهر للعيان ماطرأ على البحر المتوسط من تحوّل أساسيّ في شؤونهِ بعد الحرب . فقد اتسع نطاق المصالح الفرنسية والبريطانية في شرقهِ وفي الشرق الاقصى اتساعاً عظيماً . وأصبح نقل النفط فيهِ اليهما من أهم المسائل التي تسترعي عنايتهما . فبريطانيا تجيء بثلاثة أرباع حاجتها منهُ من جزائر الهند الشرقية الهولندية وايران والعراق ورومانيا حالة ان فرنسا تجيء بنصف حاجتها منهُ من العراق . وهذه الشحنات تجيء عادة عن طريق البحر المتوسط ، فنفط العراق يدفع في الانابيب الى حيفا وطرابلس قرب بيروت . وهذا علاوة على ما لفرنسا وانكلترا من مهام الدفاع في سوريا وفلسطين وشرق الاردن ومصر والعراق. ويضاف الى ما تقدم ان بريطانيا جعلت شرق البحر المتوسط عقدة رئيسية في

شبكة مواصلاتها الامبراطورية الجوية . وفرنسا اصبحت اشد اعتماداً مما كانت على امبراطوريتها الافريقية ومستعمراتها الافريقية لتجنيد اشدائها حالة ان تلك جيشها في اثناء السلم مقيم في افريقية ونقله الى فرنسا عند نشوب حرب اوربية مسألة موت وحياة في نظرها

وكذلك يرى القارىء ان مصالح فرنسا وانكلترا السياسية والاقتصادية والتجارية في البحر المتوسط اصبحت اعظم شأناً مما كانت من عشرين سنة . ثم ان الاسلحة الحديثة ولا سيما الطيارات، قد احدثت تغييراً اساسيًّا في الموضوع من وجهة الحربية. فالطيارات الحربية من مقاتلة ومطاردة وقاذفة للقنابل جعلت البحر المتوسط مجازاً ضيقاً لانها تطير بسرعات تتفاوت من ٢٠٠ ميل الى ٢٥٠ ميلاً في الساعة (بل اكثر من ذلك) وهذا جعل للدول القائمة على سواحله كايطاليا واسبانيا امتيازاً حربيًّا عظيماً ، وقلل من شأن جبل طارق ومالطة ، اللذين اختيرا لمكانتهما البحرية

وغني عن البيان كيف روّعت انكلترا في سنة ١٩٣٥ عند ما اشتدت الازمة الحبشية ، فاضطرت ان ترسل على وجه الاستعجال وحدات اسطولها البحري ومئات من طياراتها الى سواحل شرق البحر المتوسط وان تعقد اتفاقات التعاون المتبادل مع فرنسا ويوجوسلافيا واليونان وتركيا للعمل معاً في حالة نشوب حرب يكون سببها قرارات الجامعة . فلما اخفقت الجامعة في ردع موسوليني وانقاذ الحبشة ، شرع كثيرون من الانكليز يقولون انهم عاجزون عن حماية مواصلاتهم في البحر المتوسط في حالة نشوب حرب فيه . وأشاروا بتحويل السفن التجارية البريطانية الى طريق رأس الرجاء الصالح . ولكن الاعتراض على هذا الاقتراح كبير . فطريق الرأس اطول من طريق السويس بنحو ٨٠ في المائة . والاسطول التجاري البريطاني اقل مما كان قبل الحرب بنحو ٢٠ في المائة . وزعم السر ارنشيلد جيرد الثقة الانكليزي الكبير انهُ في حالة نشوب حرب تحتاج انكلترا الى ٧٠٠ سفينة اضافية علاوة على سفنها التجارية لتنقل الى انكلترا كفايتها من الطعام . فاذا حتم على هذه السفن السفر حول رأس الرجاء الصالح نقص مقدار الوارد الى بريطانيا نقصاً كبيراً لطول الطريق . ويضاف الى هذا العهود والمعاهدات المعقودة بين انكلترا وفرنسا وبعض البلدان في الشرقين الادنى والمتوسط . ومع ذلك فقام طريق الكاب غير مهمل بتاتاً والعمل ماضٍ بسرعة لانجاز تحصين القواعد البحرية اللازمة على سواحل افريقية الغربية والجنوبية

إلا أن انكلترا عازمة حتماً على ابقاء طريق السويس مفتوحاً اذا كان ذلك مستطاعاً على الاطلاق . وهي لذلك ماضية في برنامج تسلُّحها العظيم بحيث ينتظر ان يكون لها ٢٥ بارجة حربية سنة ١٩٤٢ والعدد الذي يكافأ معها من الطرادات والمدمرات والغوّاصات . كذلك ينتظر ان يكون سلاحها الجوّي ٥٠٠٠ طيارة سنة ١٩٤٠ ومع أن ايطاليا ماضية في برنامج

تسلّحها ، الاّ أنها على الغالب لا تستطيع ان تجاري انكلترا . ولا ان تبنى ندّاً لها في القوة البحرية في البحر المتوسط . ولكن اهم مشكلة يواجهها الانكليز هي مشكلة القواعد البحرية والجوّية . فهم آخذون في تحصين مالطة ولكنها اذا صلحت لأن تكون قاعدة جوّية كبيرة الشأن وقاعدة للغوّاصات فهي لا تصلح ان تكون مثابة للاسطول . ان قربها من صقلية يعرض الاسطول لهجمات الاساطيل الجوّية . كذلك لا تصلح الاسكندرية ولا حيفا قاعدة للاسطول علاوة على كونها في بلاد غير خاضعة للسيادة الانكليزية . ولذلك اتجه النظر الى قبرص ليكون أحد مراتبها قاعدة بحرية ، وليكون مجدها المتوسط قاعدة جوّية ، تعدّل قبل القواعد الايطالية في الدوديكانيز وتحمي انبوب النفط الممتد إلى حيفا ومدخل قناة السويس والسفن الماخرة في شرق البحر المتوسط . اما في البحر الاحمر فالاعتماد على العقبة وعدن وهناك مساعٍ تبذل على ما يقال ، للفوز بقواعد في قرسان او في الشيخ سعيد . وقد اخذت شركة بترول العراق ترخيصاً من الملك ابن سعود باستغلال سواحل بلاد العرب على البحر الاحمر في منطقة عرضها ١٠٠ كيلو متر من الساحل

فلما نشبت الحرب الاهلية الاسبانية ، ضمّت مشكلات البحر المتوسط في غربه الى مشكلاته في شرقه واصبحت انكلترا وفرنسا معرّضتين لمخاطر جديدة لان هذه الحرب قد تسفر عن رسوخ اقدام ايطاليا والمانيا في جزائر البليار والمغرب الاقصى الاسباني وجزائر كناري . فانكلترا تعلم ان جبل طارق قد ضيّع معظم مكانته الحربية لان المدافع الحديثة تصلهُ من الشط المقابل ، ولانهُ ليس فيه بقعة تصلح ان تكون مطاراً حربيًّا . فهي يهمها لذلك ان تكون جزائر البليار وسيتة وطنجه في ايدي دولة محايدة . وفرنسا على الرغم من قاعدتها البحرية في بزرته وأعمال التحصين في المرسى الكبير على الغرب من وهران تحسب حساباً للمستقبل . وقد شرعت تخزن مقادير كبيرة من البترول في فرنسا نفسها خشية ان تقطع صلتها بطرابلس قرب بيروت . ووضعت الخطط لنقل الجنود من المغرب الاقصى الفرنسي من رباط والدار البيضاء (كازابلانكا) الى بوردو بدلاً من نقلها في البحر المتوسط الى مرسيليا وطولون اذا اقتضى الامر كذلك مع ان ذلك يضيّع عليهم بضعة ايام في بدء الحرب قد تكون اهم ايامها . واذا رسخت اقدام الالمان في جزائر كناري او في ريو دورو امكنهم ان يصبحوا خطراً يهدّد خطوط المواصلات لفرنسية والبريطانية مع جنوب افريقية وأميركا الجنوبية . ثم ان الجنرال فرانكو صرّح غير مرة وكذلك موسوليني وهتلر ان ليس في النية تغيير الحالة الراهنة بضم أجزاء من أسبانيا لايطاليا او المانيا او كاتيها . ولكن الغمّ الجبرائي ليس شرطاً أساسيًا لقيام الحالة التي تخشاها انجلترا وفرنسا اذ ثبت في الحرب الكبرى ان ثغور الدول الصديقة قد تستعمل مثابة ومباءة للغواصات وما يصدق على الثغور قد يصدق على المطارات في المستقبل

الحرية المختنقة

استاذ تاريخ في اميركا يصف اعتناقه الشيوعية ثم انسحابه منها

لمورتمار سبتيورست برودو

كلما رجعت بفكري الى الماضي ارى اني كنت يوم انتظمت في الحزب الشيوعي شهيد مبدإ صالح . كان قد خصم من راتبي يومذاك ٣٥ ٪ ، وزيدت ساعات التدريس الذي ازاوله . وشر من هذا وذاك اننا استهدفنا لحملة منكرة اثارتها بعض الصحف على الاساتذة . وايقنا ان رئيس جامعتنا كان يشجع التسلطي على حريتنا . فتألفت لجنة من الاحرار لمجابهة تلك الحال ، والتقيت في احد اجتماعاتها بزعيم شيوعي ، دعيت بواسطته للخطابة في اجتماعات اتحاد العمال . فاتجهت الى الحزب تدريجاً عن طريق الخطابة حتى انتظمت فيه

فلما انضممت الى تلك الجماعة تبينت لزوم القيام باسداء خدمة الى جميع طبقات الاحرار تحت علم الشيوعيين ، ضد الخطر الفاشستي المخيف ، الذي لو عمّ البلاد لوجد الاساتذة انفسهم مصفّدين في اميركا كما هي الحال في بعض اقطار اوربا . فانتظمت في الجماعة واثقاً بأن الشيوعية تحتضن الحرية الثمينة ورعاها ، والحرية مأثورة عندنا نحن الاميركيين . وقد اقنعني رائدي الشيوعي بأنني صرت رجلاً ، ولست فيما بعد من الحليّات السجينة

كان في الجماعة يوم دخلتها مضوان وزوجاهما ، وثمانية من العمال ، فنظمونا كفصل طلبة ، يلتحق بفصل اكبر مؤلف من العمال . وقد قال لنا المدير ان الولايات المتحدة تقسم عندهم الى اثني عشر حقلاً ، يخضع كل حقل لمدير خاص وينقسم الحقل الى فروع يرأسها « مدير الاثارة » . وقد اخبرت ان هذا المدير مختص باهاجة الاعضاء واثارتهم . وتلقت حولي فاذا شاب صغير طرّ عارضه يقول « انا مدير الاثارة » فتبينت فيه كاتب محل الثاث في نيويورك السفلى . وهو شاب لم اجد في علمه وثقافته ما يحملني على الاعجاب به حين كنت اذهب الى المحل لتوفية اقساطي الشهرية ولكنهُ الآن اصبح المسيطر على تقدمي العقلي

ثم انطلقوني على اسماء الاعضاء الجديدة اذ لا يؤذن لاحد من الاعضاء الذين يحرصون على سلامتهم باستعمال اسمه العادي ولكل عضو رفيق خاص يلوذ به ، وتسلمت دفتر عضويتي وفيه جداول تبين كم يجب ان يدفع العضو بالقياس الى دخله ، وبحسبها تتدرج المبالغ من سنتين حتى افقر عامل ، الى ثلاثة دولارات ونصف — في الاسبوع — على امثالي ، وراتبي السنوي يومذاك ٣٦٠٠ ريال . ويضاف الى المرتب الاسبوعي المرقوم اتاوة للدولي الثالث والمؤتمرات عدا الكتب والمجلات والكراريس والجرائد التي يجب ان يشتريها كل عضو . وعلى فوق كل هذا

ان أدفع مرتب يوم في السنة لجريدة « العامل اليومي » . فكان مجموع ما دفعتهُ للجمعية في ثلاثين شهراً ٩٠ دولاراً. ولما انقضى العام الاول اقترض عليّ التنازل عن ساعتي للنزهة كل أسبوع لكي اعمل في سبيل الحزب . فاضطررت ان أقسم علاقاتي بجمعيتين لاتحاد المؤرخين. كما اني أرغمت على قطع اشتراكي في ثلاث مجلات ، مع التوقف عن شراء الكتب اللازمة لعملي

كانت اجتماعات الوحدة (unit) تعقد في بيوت الاعضاء ، الا حيث ربة البيت ليست من الرفقاء . وفي كل جمعية كنت اشعر بجوٍّ خانق كأن هناك مؤامرة وكأن « الفاشستيين كامنون لنا في كل زاوية » . فاذا رفع عضو صوته أسكته اخوانه . واذا رنّ جرس الباب صمتت الجميع صمت الموت

مرّ العام ولم تدرِ زوجي بأمري ، وكنت أكذب عليها في تعليل غيابي عنها . ولما أتقنت الملك كان سروري عظيماً بأنهُ صار في امكاني أن أسهر في البيت مع زوجي مرتين في الاسبوع. ومرّة عدت من الجمعية الساعة ٣٠ : ٣ صباحاً ، فاذا زوجي ما زالت ساهرة . فقالت : هل لك ان تخبرني حالك ؟ فقد عيل صبري ، حتى تسرّب اليأس الى فؤادي . فقل لي بربك أعالقٌ أنت بهوى سواي ؟ !

لم يمر في خلدي انها ستراقب يوماً في حيي . فأخبرتها أني دخلت الحزب الشيوعي . وواصلنا الحديث الى الفجر . ولا أقدر أن أصف ما شملني من السرور فيما تلا ذلك ، لأني تحررت من الكذب المتواصل على زوجي . وبعد أسبوع قالت لي : اذا كانت الجماعة تلائمك فهي تلائمني أنا ايضاً . واذا كان العمل ضربة لازب فلنشترك فيه كلانا : وقد قبلها الحزب بشيء من الارتياب في نضوجها السياسي . الا ان « مدير الاثارة » وعد ان يملي عليها دروساً تثقيفية

وفي احدى الاجتماعات مزحتْ مزاحاً لطيفاً على عارضي ستالين . فعقب ذلك صمت عميق وعلمت حينئذٍ ان المزاح يجوز في هتلر أو روزفلت ، ولكنهُ لا يباح حتماً في ستالين . وقال المدير : انا في جمعية حرية ، فاذا لم ندفع عن كرامة الاتحاد السوفياتي فنحن خائنون حركة العمال . وفي الليل ، وأنا أظن انها نائمة استخرطت في الضحك خفيةً . ولما سألتها عما أضحكها قالت : أضحكني كون عارضي ستالين جزءاً من حركة العمال

بعد شهر من انتظام زوجي في الحزب تلقينا بياناً ، يكل الينا أمر تقديم تقرير سري عن خطة والدها في معمله الصغير في معاكسته العمال . فانهُ غير منضم الى اتحاد العمال : هل كفّ الموظفون عن النضال ؟ ومن يقصد ان يطرد من معمله ؟ . ذلك ما يلزم ان تتسقطه من حميّ ونحن جلوس الى مائدته نتناول مهمّ الطعام

وأتاني المدير يوماً يسألني عشرين دولاراً لصندوق الطوارىء ، لانهُ في أزمة ، وبالله

ما أكثر أزمات ذلك الصندوق ! . فاعتذرت بأني الآن دفعت خمسين دولاراً لصديق قديم ، ملزم على ادخال زوجه في المستشفى ، فانها على وشك الولادة ، ولا يملك نفقاتها . ويالسوء ما ذكرت من بيان ! فقد عبس المدير وتولى وهو يقول : أتدفع لصديقك خمسين دولاراً ، وتملك عشرين دولاراً عني ؟ . ليس هذا التصرف شيوعيًا : وقال : لا نقدر ان نعتمد على الطبقة الوسطى في الولاء للشيوعية . قال : أما أنا فاني أخدع ، حتى ، جدّي في مصلحة الثورة

إن أحد اغراض الجمعية جمع المال . فكنا ، في كل اجتماع ، نراجع لائحة اسماء المئين القادرين على امدادنا بالمال لاقاذ المساعي التي لا تزال في رؤوس زعمائنا . وكنا نسأل أن نقيم مآدب ونزهات وسهرجانات وسياحات لمصلحة المال . وتحمل القوم على التبرع لهذي الاغراض . وعلينا أن نحيي حفلات في بيوتنا ، ونضمن قبول أصحابنا الدعوة لحضورها ، وتقدم مايدفعونهُ لنا للجمعية . وعلينا فوق سلب أصحابنا من رجال الطبقة الوسطى ، ان تمد الجمعية باعضاء جدد. على أن الحظ لم يسعدنا في ذلك . فكان عدد الاعضاء لما دخلت الوحدة ١٣ فصاروا يوم انسحبت ١٦ فقد ربحنا ٦ وخسرنا ٣

وكانت القوانين تسنّ بلا انقطاع ، يتخلل املاءها عبارات الاطراء والثناء على ماضي الجمعية. وقد ثقلت على روحي وطأة الجد الظاهري التي بها تعالج الجمعية كل أمر . من ذلك رسالة عملية في المجلد الاول من كتاب (كري) في الشيوعية السوفياتية . وقد تلي على أسماعنا تقارير شتى عن الرفاق ، وأن أحدهم حضر اجتماعاً في نادي سيدات الريبليكان . وقدّم بياناً ضافياً للجمعية عما تلي في ذلك الاجتماع

وكانت تلاوة التقرير الطويل على مستوى واحد من الصوت . علاوة على ان ذلك التقرير كان قد نشر في الصحف قبل ثلاثة أيام . فكنا في دائرة مفرغة من هذا النحو ، نبدأ حيث انتهينا . ومع ما في السياسي النادي من الحذق فهو ليس بشيء يذكر ، إذا قيس بحذق الزعيم الشيوعي. فالزعماء الشيوعيون « أصلح الملل العليا » . هم مؤمنون ، يعيشون في جوّ من القداسة لا تساهل فيه

إذا اختلف أحد الاعضاء والزعيم أبانوا له خطأهُ وأوضحوا « للملك القانوني » فاذا أصرّ على رأيه ، أوعزوا اليه ان يراجع قطعة من كتاب كارل ماركس وستالين . لا مفر في الارض اكثر اتجاباً بالجميل من الشيوعيين بكتاب كارل ماركس معدّلاً بقلم لينين يتممهُ ستالين

قد وجّه الزعماء ، في حملهم الانتخابية الاخيرة ، كل همهم ضد « لا تدون » تطبيقاً لخطة مرسومة . فقال أحد الاعضاء إذا كانت الجمعية تبغي انتخاب روزفلت فلماذا لا تصرح بذلك ؟ أليس ذلك خيراً من المداورة ؟ فأجيب بأنهُ عليه أن يصغي الى حكم القاضي . على أنهُ أصرّ على رأيه بأن ينتخب روزفلت

فساد الجمهور الصمت ، حتى خُيِّل اليَّ اننا في موسكو . وإن هذا الرجل جاسوس هدّام يقتل صدور الحكم بهلاكه

وأخيراً قال لهُ الزعيم : رد دفتر عضويتك فلست عضواً في الجماعة بعد الآن

فمسحت العرق عن جبهتي ، وسرت نحو الشباك ، وكانت الشمس تسطع على المدينة الاميركية المحبوبة ، وحينذاك خطر على بالي ، لاول مرة ، ان أطلّق الحزب . ولم تأسف على ذلك انا وزوجي . ولما ابلغت الزعيم عزمي هذا بدت عليهِ ملامح الاضطراب . وسألني ان احضر الاجتماع ، واتلو على مسامع الجمهور ما يدور في خلدي . فأجبتهُ اني اظن انهُ لا يستحسن ان يسمع جمهور الاعضاء ، فيكفي ان اصرّح بذلك لهُ وحده . واليك ما قلت : —

سلكتُ مزعج . كنت حرية الفرد . الخداع اللازب القاضي عليّ بأن أكون ذا رأيين . يعدمني راحة الفكر . فصم علاقاتي بأصحابي ، اذ لا وقت عند اعضاء الجمعية للصحبة ، ولا لمطالعة الكتب والمجلات والجرائد غير الحزبية ، مما يبث في النفس الجرأة والاقدام . فجمدت جذوة حياتي العقلية ، وثقلت على روحي وطأة التكتم التي بها تعالج الجمعية كل قضية . فلست أرى ان الثورة على الابواب . ومع ذلك فكل اجتماع كان يوهمنا اننا في « بدرون » بمدريد . وأخيراً لست احتمل التدخل في حريتي الشخصية . كنت اذا دخلت قاعة الانتخاب كنت اشعر اني مستقل برأيي ، الاّ اني كشيوعي ملزم بأن انتخب من قررهُ الحزب بموسكو . هذه هي بعض اسباب انسحابي

وفي أثناء الصمت العميق الذي تلا بياني كان يدور في خلدي كيف لبثت عضواً في الجماعة هذه المدة . وكان يجب ان انسحب منها قبل الآن . وأظن اني كنت اخجل من اعلان انحداري لذلك لم أنسحب . ولبثت طويلاً اعتقد ان الجماعة ستنظم اعتراضاً فعالاً على أسوإ المظاهر في استغلال العمال . على اني مع مرور الزمن تبينت ان الزعماء يرغبون في الاضراب للاضراب ، لا لتحسين احوال العمال . فان الاضراب لو الاضراب يفضي الى الثورة . وقد خطرت فؤادي فترة ضم العمال كافةً لفرض واحد ، على اني لما رأيت ان سعي انما يشبه بشد ازر الدكتاتورية تحت اسم الديمقراطية ، التي كانت كظم للغرورين ، حين ذاك ، قضى على الرجاء الوحيد الذي كنت اعلل به الآمال

لبث صاحبي طويلاً يحدق بالشباك صامتاً . ثم قال لي : هل احضرت دفتر عضويتك ؟ قلت : نعم ودفتر زوجي ايضاً ، افلا تريد ان احضر الاجتماع ؟ قال : كلاّ ، بل ارى الافضل انهاء الامر اليوم . فسلمتهُ الدفترين اشعاراً بالانسحاب .

اعتقت البلشفية لاجل الحرية . ولاجل الحرية هجرتها

***